البناء العلمي

المرحلة الثانية

الفصل الدراسى الأول

تفسير جزء تبارك

د. عبدالعزيز السدحان

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



سورة المعارج.

- هذه السُّورة سورةٌ مكيَّةٌ، بل نصَّ أهلُ التَّفسير على أنَّها مكيَّةٌ باتِّفاقٍ، وآياتها أربع وأربعون آية.
- ومِن أسمائها:
  - ✓ سورة المعارج، وهذا هو الاسم الأشهر.
  - ✓ سورة سأل سائل.
  - ✓ وتسمى سورة الواقع.
- وقد ورد في فضلها حديثٌ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمَعَارِجِ، أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »، وهو حديث لا يصح،

{بسم الله الرحمن الرحيم،
﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾}.

- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ذكر بعضُ أهل التَّفسير أنَّ سببَ نزولِ هذه السُّورة: أنَّ رجلًا مِن زُعماء قريش -سمَّاه بعض المفسرين النضر بن الحارث- لما سمع الوعيد وأمور البعث؛ تهكَّم بها، ثم دعا على نفسه في ما ذكره الله تعالى في آية سورة الأنفال، وقال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]، قال بعض أهل التَّفسير، فكان نزول هذه السُّورة في الرَّد على هذا الرجل، وقد قبل الله دعاءه على نفسه، فقُتل يوم بدر صبرًا – أي: بالسَّيف.

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ الباء هنا بمعنى "عن"، مثل قوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]، أي: فاسأل عنه خبيرًا.

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ يعني: سأل هذا السَّائل عن العذاب، فأنكروا البعث، وأنكروا ما جاء في الآية من الوعيد والنعيم؛ لأنَّ عقولهم ضعفت عن قبول الوحي، وقد بيَّن الله في آيات كثيرة بطلان هذا الزَّعم.

- قال تعالى: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾، أي: إذا أراد الله أمرًا تمَّ، قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: 11]، لا مَانِع لِما أَعطَى، ولا مُعطي لما مَنَعَ ولا رَادَّ لقضائه.

وهذا العذاب الذي أصابهم إنَّما هو بما اقترفته أيديهم، وبما جنوا به على أنفسهم، فقد جاءتهم الآيات البينات، وجاءهم الوصف الواضح والتَّرغيب لمن أطاع الله ورسوله، والتَّرهيب لمن عصى الله ورسوله، وجاءهم وصف النَّعيم في آيات مجملات ومفصلات، والسُّنَّة كذلك في أحاديث مجملة ومفصلة، وفي المقابل وصف الجحيم مفصَّلًا ومجملًا؛ ومع هذا كله كابروا واستكبروا وعاندوا، وكانت النَّتيجة أنَّه لا يجني جانٌ إلا على نفسه، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا.

- قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾، في المعراج أقوال، منها:
  - ✓ قيل: ذو الفواضل والنِّعم.
  - ✓ وقيل: مَن تعرج إليه الملائكة والأرواح، وجاءت الآية الأخرى مفسِّرةً ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ، وهذا فيه دليل واحد من أدلَّة إثباتِ علوِّ الله تعالى، وعلوُّ اللهِ تعالى ثابتٌ في الفِطَرِ وفي العقول السَّليمة، والنُّصوصُ لا يحصيها ديوانُ كاتبٍ لا بمنطوقها ولا بمفهومها، فكلُّها دالَّة على علوِّ الله تعالى.

- قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ﴾ تقدَّم أنَّ الملائكة عالم غيبي، مخلوقون مِن نور، مكلفون بأعمال، لا يَعصون الله مَا أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وتقدَّم لكم أيضًا الخلل العَقدي في بعض الموسوعات العلميَّة العالميَّة كالموسوعة البريطانية، حيث ذكروا أنَّ الملائكة هم نوازع الخير في الإنسان، كما أنَّ الشَّياطين هم نوازع الشر. وهذا التَّعريف خلل عقدي، والصَّحيحُ أنَّ نَوازع الخير وثمار الخير مِن آثار الملائكة، فهم يصلُّون ويدعون للمؤمنين، ويدافعون عنهم، أمَّا الشَّياطين فيغونهم.

- قال تعالى: ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ قيل: إنَّ الرُّوح هو جبريل -عليه الصَّلاة والسَّلام- وذِكْرُه مخصوصًا من عموم الملائكة من باب مَا يُسمى بعطف الخاص على العام، لأهميَّة ذلك الخاص، ومثله في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: 98]، مع أنَّ جبريل وميكال من الملائكة، لماذا أفردهم بالتَّسمية وخصهم بالذكر؟ لعظيم شأنهما، وقيل: لأنَّ الكفار يعادونهما أكثر من غيرهما.

- قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، هذا اليوم قدَّره الله بخمسين ألف سنة، قال بعض أهل العلم: إنَّ هذه المدة الزمنية هي ما بين العرش إلى أسفل سافلين. وقيل: هي اليوم الفاصل بين القيامة وآخر الدنيا، وهي أقوال قيلت ولكن تحتاج كلها إلى دليل؛ لأنَّ الأمور الغيبية لابدَّ فيها من دليل، ولهذا جاء في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47]، وهنا قال: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قال بعضهم: هو كألف سنة، لكن يُثقِّله الله على الكفار فيكون كخمسين ألف سنة.

جاء أنَّ ابن أبي مُليكة، وعبد الله بن فيروز دخلا على ابن عباس -رضي الله تعالى عنهم جميعًا- فسألاه عن هاتين الآيتين، فقال: "هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمَا" [1]، فسكت. ثم سألوا سعيد بن المسيب بعد حين، فلمَّا بلغه قول ابن عباس، قال: "يسعني ما وسع ابن عباس"[2].

فهو يوم كخمسين ألف سنة بمسيرة الراكب، أو مسيرة الخيل، أو مسيرة.. الله أعلم.

فإن قيل: هناك ألف سنة، وهنا خمسون ألف سنة، يقال: يومان أخبر الله تعالى بهما، وهذه أمور غيبية نؤمن بها ولا نخوض فيها، ولا نُقدِّر أشياءً ليس عليها دليل.

- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ ، جاء في القرآن الكريم وصف "الجميل" لأمور، منها: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10]، ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، وأذكر أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية سُئل عن الصفح الجميل، وعن الصبر الجميل، وعن الهجر الجميل. فقال: "الصبر الجميل: صبر بلا شكوى" [3]، إذا ابتلي الإنسان من أحد، أو بمرض، فيصبر صبرًا لا شكوى فيه حتى لا يذهب أجره، أو يقل أجره. قال: "والصفح الجميل: صفح بلا عتاب" ، إذا صفحت عن أحد فلا تعاتبه، يكفي المدة التي هجرته قبل الصفح عنه. قال: "والهجر الجميل: هجر بلا أذى"، فيكفيه الهجر تأديبًا له.
- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾؛ لأنَّ عاقبة الصبر الجميل حميدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

- الكفار يَرون يَوم البعث بعيدًا، ويؤمِّلون آمالًا، ويستبعدون وقوع ذلك، واحتجُّوا بقولهم: كيف يبعث الله العظام النَّخرة؟

يقولون مات الآباء، ومات الأجداد، فهل يعقل أن يُبعث أولئك كلهم؟ هذا لا يكون. فغلبت عليهم عقولهم بإنكار البعث.

وذكر بعض أهل التَّفسير أنَّهم لما احتجُّوا بأدلَّة عقليَّة، ردَّ الله تعالى عليهم بدليل عقلي يَرونه ويُشاهدونه ويَسمعونه ويَحسونه.

فلمَّا أنكروا البعث، وثَقُل عليهم، وشُقَّ على عقولهم أن يُبعث هؤلاء الموتى بعظامهم النَّخِرة؛ جاءت الآية بهذا الرَّد: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ كانت خاشعة ميّتة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39].

- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي: يرون أنَّ هذا العذاب لن يكون، وأمورُ بعثٍ يُستبعد وقوعها، وأنَّهم لن يعذبون؛ ولكن خلافَ ظنّهم واعتقادِهم هو قريبٌ، وما ذَهَبَ مِن الدنيا أكثر ممَّا بقي، فالذي بقي في الدنيا

---

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية ج 13 / فصل: فصل إذا لم يوجد التفسير في القرآن ولا في السنة .

[2] جاء في فتح القدير بلفظ "هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ قَدْ أَبَى أَنْ يَقُولَ فِيهَا ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنِّي" .

[3] قال ابن القيم في (بدائع الفوائد : 4 / 112 ، 113): وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه ونور ضريحه– مرارًا يقول: ذَكَرَ الله الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل؛ فالصبر الجميل الذي لا شكوى معه، والهجر الجميل الذي لا أذى معه، والصفح الجميل الذي لا عتاب معه .

الآن أقل ممَّا ذهب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1]، اقتراب نسبي طبعًا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

- تتغير السُّنَن الكونيَّة عند قيام السَّاعة ،قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ ، قالوا: المُهل هو الرصاص المذاب. وقالوا: هو كأثر الزَّيت. وقالوا: كماء الفضة إذا ذابت.
- وجاءت أوصافٌ أخرى للسَّماء عند قيام السَّاعة: مثل قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، أيضًا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1]، فهذه الآيات العظيمة فيها تَغيُّر السُّنَنِ الكونيَّة، فينبغي أن يتَّعظ الإنسان إذا رأى مثل هذه التَّغيرات في السُّنَن الكونيَّة كالكسوف، والخسوف، والصواعق الشَّديدة، حتى قال بعض شُرَّاحِ الحديث: "إن من الحِكم في وقوع الكسوف والخسوف: تذكير النَّاس بعلامات الساعة الكبرى". فتخيل هذا الكوكب العظيم، فجأة تغيب الشمس وتظلم الدنيا، فهذا يذكِّر بالآخرة.
- وهنا قال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ ، أي: تذوب، وتنشق، وتنفطر. وفي سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5]، العهن: هو القطن المنثور. وفي سورة طه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 105 - 107]، أي: متساوية، كل هذه علامات كبرى للسَّاعة.
- قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ لا يسأل صديقٌ صديقَه، انتهى الأمر، بل لا يسأل الحميمُ حميمَه، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ [الحج: 2] هل يُعقل أنَّ الأم وهي ترضع ولدها، وهو يبكي يريد الرضاع، جائع، عطشان، ورحمة الأم بولدها أعظم رحمات البشر، فتخيَّل أنَّ هذه الأم تَذهل ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 2] ، هذا من علامات الساعة، وما سيكون في يوم القيامة.
- قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرون، فالمجرم يعرف أنَّه جنى على نفسه، وأنَّه سيلقى ما قدَّم، وأنَّه رأى أن ما كذب به واقع لا محالة.
- قال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾، "يومِئذٍ" بكسر الميم، وفي قراءة بفتحها"يومَئذٍ"، ولا أدري هل القراءة متواترة أولا؛ الله أعلم.
- قال تعالى: ﴿بِبَنِيهِ﴾، أي: أقرب النَّاس له.
- قال تعالى: ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ﴾ سُميت الفصيلة فصيلة؛ لأنَّه انفصل عنها.
- قال تعالى: ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾، أي: كل هذه القرابات والعشائر والقبائل والأسر لن تنفعه شيئًا.
- قال تعالى: ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ، وجاء في سورة لقمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: 33]، والرسول صلى الله عليه

وسلم يقول: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» [٤]، يا عباس، يا فلان، يا فلان، ففي ذلك الموقف لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَوْلًى شَيْئًا.

- وهذا دليل على أنَّ الإنسان لابد وأن يجتهد في الدنيا بالعمل الصالح؛ لأنَّ في موقف القيامة لن ينفعك إلا الله -عز وجل- فأنت الآن في الدنيا إذا ألَمَّت بك نازلة، ووعدك أحدُ النَّاسِ مِن مسئولٍ أو قريبٍ، أو جارٍ، أو صديقٍ؛ بمعونة أو بشفاعة ثم انتظرته وتخلف عنك؛ فستشعر بالضيق لأنَّه لم يتحقَّق ما تريد، أو قد يعدُك لكن يعجز، لكن في الآخرة ليس لك أحد إلا الله، فالأم تغفل عن وليدها إذا قامت السَّاعة، والحامل تضع حملها، وكلُّ أحدٍ يفرُّ من صاحبِه.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

- ﴿كَلَّا﴾ أي حقًّا، وتأتي بمعنى لا، ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى﴾ ، هذا وصفٌ للنار، أي: تتلظى من حرها، وتقدَّم أنَّ كثرة الأسماء للشيء تدلُّ على عظيم شأنه في الغالب، وأعظم الأسماء هي أسماء الله تعالى، وأسماء الرسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- وأسماء القرآن الكريم، وأسماء الإسلام، وذُكِر أسماءٌ للجنَّة والنار لعظيم شأنهما.
- قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ قيل: إنَّ الشَّوى: جلدة الرأس، وقيل: أطراف الأصابع. وبغض النظر عن الأقوال الأخرى، لكن معناها: أنَّها تنزع الجلود، وتنزع المفاصل. وهذا الوصف حتى لو لم نعرف معناه؛ إلا أنَّه يدلُّ على شناعة وقوة العذاب.
- قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً﴾، قيل: تنزع جلدة الرأس عن عظامه.
- قال تعالى: ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ أدبر عن الخير، وعن الإيمان بالله، وعن تصديق ما سيكون في القيامة، هذا الذي أدبر تولى عن آياتنا وأعرض واستكبر، ولا يجني جان إلا على نفسه.
- قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ هَمُّهُ الدُّنيا، ولم يرَ لِلآخرة أمرًا، فاهتمامه بالدنيا وجمعه لها، وإعراضه عن الآخرة؛ أضرَّ به، حتى يقول بعض النَّاس: أضر به في الدنيا والآخرة، لأنَّه في دنياه لم يهنأ بها، حتى وإن تلذذ بالمطاعم والمشارب، لكن لم يهنأ بنعمة الإيمان، ولا بنعمة القرآن، ولا بنعمة طاعة الله -عز وجل- فألهته دنياه عن آخرته، جمع المال ووعاه ومنع الحق المستحق للفقراء والمساكين، وأخذنا في المجلس السابق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: 34]، فهذا الرجل الذي أدبر عن الحق، وأعرض عنه وكان هَمُّهُ الدُّنيا، جنى على نفسه في الدنيا بحرمانها من العمل الصالح، وجنى على نفسه في الآخرة بأنَّه صَلَى النار، عدلًا من الله تعالى وحكمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

- ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ ، أي: جنس الإنسان، ويشمل كل بني آدم، كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر 1 -3] يعني كل بني آدم.

[٤] صحيح مسلم (205). بلفظ: "يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا "

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ، هَلوعًا: أي: يَفزع ويخاف، فالهلع طبيعة في بني آدم، ودائمًا في حياتنا تأتي أخبارُ أفراحٍ، وأخبارُ أتراحٍ، تارة تأتي بشارة بالخير، وتارة تأتي بشارة بالشر.
- فهنا قال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ قيل: إذا مسه الشَّر لم يصبر.
- قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، أي: لم يشكر، فكثير من النَّاس إذا أتته المصيبة ترك الآداب الشَّرعيَّة، كالاسترجاعِ، وسؤالِ الله الثَّبات، والعوض، والتَّأدُّب في اللَّفظ والقول، وبعضهم يفعل من أخلاق الجاهلية، كشقّ الثَّوب، ونتف الشَّعر، واللَّطم، إلى آخره..

فهذا الوصف لشريحة أو لطائفة من النَّاس، إذا مسهم الشَّر جزعوا ولم يصبروا، وإذا مسَّهم الخير أيضًا لم يشكروا، لكن هناك استثناء يخرج من هذه القاعدة ومن هذه العموم، فمن هؤلاء الذين استثناهم الله؟

قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

- قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، دليل على عِظم أثر الصَّلاة على جوارح العبد، وعلى قلبه، وعلى تعامله مع الله، ومع نفسه، ومع النَّاس.

لكن السؤال: هل هم كل من صلى وركع وسجد؟ ،لا، يختلفون، فقد جاء في الأثر: "وَإِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونَانِ فِي الصَّفِّ وَأَجْرُ مَا بَيْنَ صَلَاتِهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" ، لهذا ترى المصلين خلف الأئمة بالمئات أو بالآلاف كما في الحرم، لكن يختلفون في صلاتهم.

- هنا قال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ثم بدأ يذكر صفات أولئك المصلين.
- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ جاء وصفٌ آخرٌ في نفس السُّورة، ذكر أنَّهم على صلاتهم يحافظون، وأيضًا جاء وصف لهم في سورة المؤمنون.
- ما الفرق بين ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟

قيل: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: خاشعون، فالماء الدائم هو الراكد الساكن، فهم في صلاتهم خاشعون، ويحافظون على أركانها، وواجباتها، وسننها القوليَّة والفعليَّة، ولهذا أيُّها الأكارم ينبغي أن نحرص على أن نتعلَّم وصف الصَّلاة النَّبويَّة، والنَّبي -عليه الصَّلاة والسَّلام- يقول في ما رواه البخاري عن مالك بن الحويرث: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[٥]، ويقول -عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ تَوَضَّأَ كَمَا أُمِرَ، وَصَلَّى كَمَا أُمِرَ» ، لاحظ «كما أُمِرَ»، ليس كما تعوَّد «غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٦].

- قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي: في خشوع وسكون واطمئنان.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، سمي المال بالمال لماذا؟ لأنَّه يتموَّل.

---

[٥] رواه الدارقطني في سننه (925) والبيهقي (1101) وابن عبد البر في التمهيد (638) وصححه الألباني في صحيح الجامع

[٦] مسند أحمد (22971)، واللفظ لابن حبان في صحيحه، وحسنه الألباني.

- قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

السَّائل المحروم: الفقير. وقال بعضهم في المحروم: نعوذ بالله أنَّ بعض الأغنياء يبخل على نفسه، وعلى أهل بيته، حتى لا يُرى عليه أيُّ أثرِ نعمةٍ من بُخله، فهذا محروم، وكذلك تسبَّب في إعطاء أهل بيته الزَّكاة، فجمعَ إثمَ عدم النَّفقة مع إثمَ صرف الصَّدقة لأولاده، وحرمانه الآخرين، فأهل الصَّدقة والزَّكاة يصرفون أموالهم لأولاده لبخله عليهم، فهو بذلك عطَّل صرف الأموال إلى مَن استحقها من الفقراء.

فالشاهد: الإنسان يؤدي حق المال، ويتقرب به لله تعالى، ولا يَمُنُّ به في إعطائه، بل يفرح أنَّ الله أنعم عليه، ومِن شُكر نعمة المال: أن يصرفها في وجهها الشَّرعيّ.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

- ذكر هنا في وصف المصلين: حفاظهم على الصَّلاة، وأداؤهم لحق الأموال كالزكاة، ثم ذكر هنا المعتقد: ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ ، يوم الدِّين: هو يوم الجزاء والحساب، لهذا وصف يومَ الدِّين أنَّه يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 17، 18].
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يُصدِّقون أنَّه واقعٌ لا محالة، وأنَّ ما أخبرهم الله تعالى به واقعٌ لا محالة، جاءنا علم اليقين، وسنراه بعين اليقين، وسنباشره بحق اليقين.
- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ، أي: خائفون لعلمهم بحقيقته، وأنَّه واقعٌ لا محالة، والمسلم دائمًا يرجو ويخاف، ولا يأمن مكر الله -عز وجل- لكن إذا علم الله صدق نيته، وطيب طويته، وأدَّى العبد ما أوجب الله عليه؛ فلن يرى من ربه إلا ما يشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويقر عينه.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ لا يأمن مكر الله، هذا عذابٌ واقعٌ لا محالة لمن استحقه، وسيرى النَّاس جميعًا ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 71]، لكن ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: 72]، جعلنا الله وإياكم ممن ينجيهم الله، والسامعين والمشاهدين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ جاء في الحديث «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَا الْعَيْنِ : النَّظَرُ، ...» إلى أن قال: «وَالْفَرْجُ : يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ »[٧]، فحفظ الفرج من أخلاق المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ ، وهو الزواج الشرعي، ﴿أَوْ

---

[٧] صحيح البخاري (11178).

﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مِلك اليمين، حتى قال بعضهم: هذه الآية فيها دليلُ تحريم نكاح المتعة، لأنَّ الله استثنى أمرين: الأزواج، ومِلك اليمين.

يقول بعض أهل العلم: يلحق بحفظ الفروج: ما يثير الغرائز بأسباب محرمة، كالنظر، ومشاهدة القنوات الماجنة الفاحشة، والقنوات الهابطة والصور الهابطة، فكل ما يُثير في النَّفسِ الشَّهوة المحرَّمة ينبغي الإنسان يحذره ويُحذِّر منه.

- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، فهذا لا لوم عليهم، بل في ذلك أجر، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته له فيه أجر في هذه؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟» قالوا: بلى، قال: «فَكَذَلِكَ»[٨].
- قال تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ، أي: ظلم نفسه واعتدى عليها، وخرج عن الإطار الشَّرعيِّ الذي أباح الله له أن يمارس فيه ما شاء من المباحات، فتعدى عليها بتجاوزه هذا الحد الشَّرعي.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.
- هذا تابع للأوصاف السَّابقة، والأمانة **تشمل الأمانة الحسّية والمعنويَّة.**
  - ❖ **الأمانة الحسيَّة:** كأن يضع رجلٌ عندك مالًا ويقول: سأسافر وسأرجع بعد حين، أو هذه سيارة عندك تحتفظ بها حتى أرجع، أو أعطيها فلانًا، أو كذا.. فينبغي أن يرعى هذه الأمانة.
  - ❖ **الأمانة المعنويَّة:** كالأمانة على الأولاد، وذلك بتربيتهم تربية صحيحة، عدم تضييع الأمانة.
- قال تعالى: ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾، يعني: إذا عاهدوا أوفوا، ولهذا بيَّن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنَّ من صفات النِّفاق، «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»[٩]، ولكن المؤمنين يرعون عهودهم حق رعايتها.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ إذا شَهِدَ عمروًا ثم طُلبت شهادته، فإنَّ من واجب الديانة أن يؤديها، ومَن يكتم الشَّهادة فإنَّه آثم، فيؤديها كما رأى، أو كما سمع، أو كما شهدها بنفسه.
- قوله: ﴿قَائِمُونَ﴾ أي مهتمُّون، ولهذا جاء قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: 75]، أي: إلا ما دمتُ عليه مُهْتَمًّا بذلك، فلان يقوم على هذا العمل، أي: يباشره، ويهتم، ويشرف، ويتابع.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ تقدَّم أنَّ الدَّوام على الصَّلاة: هو الخشوع، وأنَّ المحافظة: هي الإتيان بأركانها وواجباتها وسننها وأقوالها.
- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.
- نقف عند هذه الآية، وهذا جزاء المصلِّين، الذين صدَّقوا بيوم الدِّين، وحفظوا فروجهم، وأدُّوا أماناتهم، إلى آخر ما ذكر الله، ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أحسنوا في الدنيا، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان!

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

---

[٨] صحيح مسلم (1006).

[٩] صححه الألباني في صحيح الجامع (3043).